بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٩ — سورة الكافرون

مكية ، وآيها ست . قال ابن كثير : ثبت فى صحيح مسلم[١] عن جابر أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة وبـ (قُلْ هُوَ ٱللَّـهُ أَحَدٌ) فى ركعتى الطواف . وفى صحيح مسلم[٢] من حديث أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قرأ بهما فى ركعتى الفجر . وروى الإمام أحمد[٣] عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ فى الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعاً وعشرين مرة أو بضع عشرة مرة (قل يأيها الكافرون) و(قل هو الله أحد) . وروى الإمام أحمد عن الحارث ابن جبلة قال : قلت : يارسول الله ! علمنى شيئاً أقوله عند منامى . قال : إذا أخذت مضجعك من الليل فاقرأ : قل يأيها الكافرون ، فإنها براءة من الشرك . وقد تقدم فى الحديث أنها تعدل ربع القرآن . قال فى (اللباب) : ووجه ذلك أن القرآن مشتمل على الأمر والنهى ، وكل واحد منهما ينقسم إلى ما يتعلق بعمل القلوب وإلى مايتعلق بعمل الجوارح ، فحصل من ذلك أربعة أقسام. وهذه السورة مشتملة على النهى عن عبادة غير الله تعالى ، وهى من الاعتقاد ، وذلك من أفعال القلوب. فكانت هذه السورة ربع القرآن على هذا التقسيم . وسيأتى فى تفسير الإخلاص سر آخر.

(١و٢) هذان الحديثان أملّى التنقيب عنهما ولم أعثر عليهما .

(٣) أخرجه بالصفحة رقم ٥٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٥٢١٥ (طبعة المعارف) .

(٤) ليس من الصحابة من اسمه الحارث بن جبلة ، كما هنا ، ولكن هذا الحديث أخرجه عن فروة بن نوفل الأشجعىّ عن أبيه ، بالصفحة رقم ٤٥٦ من الجزء الخامس .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ)

[٢] (لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

[٣] (وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ)

[٤] (وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ)

[٥] (وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ)

[٦] (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ)

«قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ» أى المشركون الجاحدون للحق، الذى وضحت حجته واتضحت محجته «لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ» أى من الآلهة والأوثان الآن «وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ» أى الآن «وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ» أى فيما أستقبل «مَّا عَبَدتُّمْ» أى فيما مضى «وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ» أى فيما تستقبلون أبداً «مَآ أَعْبُدُ» أى الآن وفيما أستقبل ـ هكذا فسره الإمام ابن جرير(١) رحمه الله. ثم قال: وإنما قيل ذلك كذلك، لأن الخطاب من الله كان لرسول الله ﷺ فى أشخاص بأعيانهم من المشركين، قد علم أنهم لا يؤمنون أبداً، وسبق لهم ذلك فى السابق من علمه. فأمر نبيه ﷺ أن يؤيسهم من الذين طمعوا فيه وحدثوا به أنفسهم . وإن ذلك غير كائن منه ولا منهم فى وقت من الأوقات. وآيس نبىّ الله ﷺ من الطمع فى إيمانهم، ومن أن يفلحوا أبداً. فكانوا كذلك لم يفلحوا ولم ينجحوا. إلى أن قتل بعضهم يوم بدر بالسيف، وهلك بعضٌ قبل ذلك كافراً . ثم روى رحمه الله عن ابن إسحق عن سعيد بن ميناء قال : لقى الوليد بن المغيرة

(١) انظر الصفحة رقم ٣٣١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

obeikandl.com

والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف ، رسول الله ﷺ فقالوا: يامحمد! هلم، فلنعبد ماتعبد وتعبد مانعبد ، ونشركك فى أمرنا كله. فإن كان الذى جئت به خيرا مما بأيدينا، كنا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه . وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يديك، كنت قد شركتنا فى أمرنا وأخذت منه بحظك. فأنزل الله (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ..) السورة. وفى رواية: وأنزل الله فى ذلك هذه السورة، وقوله[1] (قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ) (بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ) انتهى .

وقيل: الجملتان الأخيرتان لنفى العبادة حالا. كما أن الأوليين لنفيها استقبالا. قال أبو السعود: وإنما لم يقل (ما عبدت) ليوافق (مَا عَبَدتُّمْ) لأنهم كانوا موسومين قبل البعثة بعبادة الأصنام، وهو عليه السلام لم يكن حينئذ موسوماً بعبادة الله تعالى . وإيثار (ما) فى (مَآ أَعْبُدُ) على (مَن) لأن المراد هو الوصف . كأنه قيل (ما أعبد) من المعبود العظيم الشأن الذى لا يقادر قدر عظمته . وقيل: إن (ما) مصدرية . أى لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتى. وقيل: الأوليان بمعنى (الذى) والأخريان مصدريتان. وقيل: قوله تعالى (وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ) تأكيد لقوله تعالى (لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) وقوله تعالى (وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) ثانياً تأكيد لمثله المذكور أولا . انتهى .

ونقل ابن كثير عن الإمام ابن تيمية؛ أن المراد بقوله (لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) نفى الفعل، لأنها جملة فعلية (وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ) نفى قبوله لذلك بالكلية، لأن النفى بالجملة الاسمية آكد، فكأنه نفى الفعل وكونه قابلا لذلك. ومعناه نفى الوقوع ونفى الإمكان الشرعى أيضا. وهو قول حسن .

واختار الإمام كون (ما) فى الأوليين موصولة وفيما بعدها مصدرية ، قال: فمفاد الجملتين الأوليين الاختلاف التام فى المعبود . ومفاد الجملتين الأخريين تمام الاختلاف فى العبادة. فلا

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٤و٦٦] .

معبودنا واحد ولا عبادتنا واحدة ، لأن معبودى ذلك الإله الواحد المنزه عن الند والشفيع، المتعالى عن الظهور فى شخص معين، الباسط فضله لكل من أخلص له ، الآخذ قهره بناصية كل من نابذ المبلغين الصادقين عنه . والذى تعبدونه على خلاف ذلك . وعبادتى مخلصة لله وحده، وعبادتكم مشوبة بالشرك مصحوبة بالغفلة عن الله تعالى، فلا تسمى على الحقيقة عبادة . فأين هى من عبادتى ؟ وقوله تعالى « لَكُمْ دِينُكُمْ » تقرير لقوله تعالى (لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) وقوله تعالى (وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ) كما أن قوله تعالى « وَلِىَ دِينِ » تقرير لقوله تعالى (وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) والمعنى أن دينكم، الذى هو الإشراك ، مقصور على الحصول لكم ، لا يتجاوزه إلى الحصول لى أيضا ، كما تطمعون فيه . فإن ذلك من المحالات . وأن دينى الذى هو التوحيد ، مقصور على الحصول لى ، لا يتجاوزه إلى الحصول لكم ، فلا مشاركة بينه وبين ما أنتم عليه .

تنبيه :

قال ابن كثير استدل الإمام الشافعىّ وغيره بهذه الآية الكريمة (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ) على أن الكفر كله ملة واحدة فورّث اليهود من النصارى وبالعكس ، إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به . لأن الأديان ، ماعدا الإسلام ، كلها كالشىء الواحد فى البطلان . وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود ، وبالعكس . لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] (لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَتَّى) .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٧٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٦٦٦٤ (طبعة المعارف) .